كلية العلوم الانسانية و العلوم الاجتماعية * جامعة ابي بكر بلقايد - تلمسان * المجلس العلمي

المحاضرة السادسة (06)

النشاط الاقتصادي في المغرب الأقصى: الزراعة في العهد السعدي

عناصر المحاضرة:

- تمهيد
- السياسة الاقتصادية في المغرب السعدي
- النشاط الزراعي
- السكر في مقدمة الإنتاج.
- التراجع بعد الانتعاش.
- خاتمة

تقديم:

ارتكز الاقتصاد المغربي في القرن 10هـ/16 م وما بعده أساسا على الزراعة نظرا لأهميتها الغذائية والتجارية وحتى السياسية، لذلك خط السعديون استراتيجية في هذا القطاع.

1-السياسة الاقتصادية في المغرب السعدي:

إن الحديث عن الاقتصاد السعدي يجرنا للبحث في العوامل المساعدة على تطور أو تراجع اقتصاد المغرب الأقصى فقد استطاع ملوك الدولة السعدية توفير الشروط الضرورية للارتقاء باقتصاد المغرب فنشطت القطاعات الثلاث حيث عرف الاقتصاد السعدي نجاحا واسعا وانتعاشا قبل أن يتراجع لاحقا؛ ولعل أهم هذه الشروط:

- ومن أول الشروط توفير الامن وطرد الاستعمار الايبيري، حيث كان لعامل توفير الأمن والاستقرار ضرورة ملحة؛ حيث نجح السعديون في ذلك منذ القرن16 م بمواجهة القوات الإسبانية والبرتغالية ووقف حملات السلب والنّهب. وفك الحصار على السواحل الأطلسية وحتى المتوسطية وتحرير أهم المدن مثل أغادير، آسفي حيث أصبحت مراكز المبادلات
- تشجيع ملوك السعديين توفير الشروط الضرورية للارتقاء باقتصاد المغرب فنشطت القطاعات الثلاث وعرفت نجاحا بادئ الامر ثم تراجعت لاحقا.
- الاهتمام بالزراعة والحرف والتجارة الداخلية بتنظيم الاسواق وتشجيع التجارة، وإشراك اليهود والأندلسيين والعلوج في النشاط الصناعي والزراعي.
- اتباع سياسة المعاملة الحسنة للفئات الاجتماعية المحلية والوافدة واستقبال الصناع المهرة واستغلال الخبرة المحلية والأجنبية بحيث حرص الملوك السعديين على استغلال الإمكانيات، تنويع المحاصيل، توزيع الأراضي، والعمل على "شق المجاري المائية" بتوسيع مساحات الري
- العمل على انتعاش البادية المغربية من خلال تنظيم الزراعة والماشية والري وتوزيع الأراضي.
- البحث عن مجالات اقتصادية أخرى تزيد في الدخل الوطني من خلال مضاعفة الإعمال التجارية والزراعية وإنشاء المراسي والمرافىء تشجيعا للتجارة الخارجية.

2-النشاط الزراعي:

أدرك السعديون دور الزراعة الرئيسي في الاقتصاد المغربي بوجود العوامل الطبيعية والبشرية المساعدة، فأولوا عناية بذلك من خلال تنظيم الزراعة والاعتناء بالماشية والاهتمام بالري والسهر على توزيع الأراضي وتنظيمها، والاعتناء بالماشية والصيد البحري "تربية النحل ودودة القز".

من أهم المحاصيل الزراعية نجد الحبوب التي تأتي في مقدمة المنتجات وتشمل القمح والشعير المتميزين بالجودة حتى بلغت أهميتها في التصدير وتحقيق الأمن الغذائي خاصة الشعير[1]، إلا أننا لا يمكن الإشارة لحجمها الحقيقي كما أن إنتاج الحبوب اتسم بعدم الاستقرار والتذبذب[2].

أما **السكر**؛ فقد توسع مجال زراعته اعتمادا على قصب السكر بداية من ق 16 م وكانت معظم حقوله بمنطقتي السوس ومراكش.[3]

أشاد الوزان ومارمول كربخال والفشتالي بدور الأشجار المثمرة في الاقتصاد والمجتمع المغربي وبالمجالات والمناطق الزراعية كفاس ومكناس وسلا، إضافة إلى التنوع والجودة وتحتل غراسته مكانة هامة ويمثل دورا في اقتصادها ولعل أبرزها الزيتون الذي يأتي في مقدمة الإنتاج[4]، إضافة إلى أشجار التين والبرتقال والجوز وبقية الفواكه[5]... كما يمكن الإشارة إلى محاصيل أخرى كالتبغ، الكتان، القطن، الحرير، الشمع، العسل.

للإنتاج الحيواني بكل أصنافه (الأغنام والبقر والماعز وحتى الخيل) والصيد البحري أهمية كبيرة أيام السعديين نظير وفرة الإمكانات الطبيعية بوجود المراعي والعلف إضافة إلى المرافئ وحتى الخلجان والاودية التي تساهم في عملية الصيد[6].

أولى السلاطين السعديون في مجال الزراعة اهتماما كبيرا فعملوا على توفير الشروط الملائمة للنهوض بهذا القطاع من توزيع الاراضي على القبائل. وتوفير الأمن للفلاحين لزراعة أرضهم والاستكثار من غراسة الأشجار المثمرة وتربية الماشية وشق القنوات الخ...

3-السكر في مقدمة الإنتاج:

إلا أن اهتمام السعديين بالزراعة يبرز خاصة في اهتمامهم منذ بداية أمرهم بزراعة قصب السكر اهتماما كبيرا وذلك على ضفاف نهر السوس منذ عهد محمد الشيخ لملائمة التربية هناك ووفرة الماء للري فكثروا في عهده ثم في عهد خلفائه زراعته "حتى عم الاغتراس بالقصب الأوطان" [7]، وقد بلغت مساحة أحد الحقول بجنوب غرب تارودانت حوالي 15ألف هكتار متصلة[8].

---

[1]- إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ من بداية المرينيين إلى نهاية السعديين، ط1، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ص427.

[2]- مارمول كرخال، أفريقيا، ترجمة: محمد حجي وآخرون، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، دار النشر للمعرفة، الرباط 1989، ص 133 وما يليها.

[3]- المصدر نفسه، ص29؛ 37.

[4]- المصدر نفسه، ص 109؛ 181؛252؛ 273.

[5]- الوزان، المصدر السابق، ص214؛113؛314؛ 336؛

[6]- ينظر على التوالي: مارمول، المصدر السابق، ص 29؛279؛109 ؛ الوزان، المصدر السابق؛ ص331-، 157، 163...

[7]- الفشتالي، مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا، تحقيق عبد الكريك كريم، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، 1972، ص210.

[8] - Berthier Paul, Les anciennes sucreries du Maroc et leurs réseaux hydrauliques, Rabat, 1996, p221.

وكثر انتاج قصب السكر حتى لم تكن له قيمة في المغرب[1]، وكثر اقبال التجار الاوروبيين على شرائه لأنه كان خلال القرن 10هـ/16م مطلوبا بكثرة، ليس لقلته فقط في العالم ولكن أيضا لجودته العالية وصفائه وحلاوته، ولرخص ثمنه حتى أن اليزابيث ملكة انجلترا في النصف الثاني من القرن16م كانت لا تستعمل غيره.

أصبح السكر موردا هاما للدولة، وكان مدخول السلطان محمد الشيخ عن كل رحي من الارحية السبعة التي أقامها 7500 مثقال سنويا أما مدخول أحمد منصور من السكر فكان أكثر من 600،000 أونس وفي تقدير آخر كان السكر يشكل ثلث مدخول الدولة السعدية.

وجر الاهتمام بزراعة قصب السكر إلى اقامة قرى للعمال، وثكنات لحراسة حقوله كقرية فريشة التي بناها عبد الله بن محمد الشيخ، وأقام فيها حامية تتألف من 300 فارس للغرض المذكور، وبلد غارد التي بناها نفس السلطان قرب تارودانت. [2]

كما كانت معظم حقول قصب السكر، ومصافيه بيد الاشراف السعديين الذين كانوا يؤجرونها مقابل مبالغ سنوية معينة لطائفة من أهل الذمة خاصة من اليهود نظرا لخبرتهم وتحكمهم في رؤوس الاموال [3]، إلا انهم كانوا يتدخلون في تحديد أسعاره .أما أهم حقول قصب السكر فهي توجد في السوس وكذلك في شيشاوة بحوز مراكش والصويرة[4].

قام السعديون بشق المجاري لري حقول قصب السكر وأقاموا وسط هذه الحقول معامل لصناعة قصب السكر. ولكن الاضطرابات التي شهدها المغرب في مطلع القرن 11هـ/17م، بسبب تنازع أبناء المنصور على السلطة، قضت على مصانعه وخربت حقوله. وساهمت منافسة سكر البرازيل والانتيل في عدم ازدهار زراعته، وصناعته من جديد.

في إطار جهود السعديين في القرن 10هـ/16م في مجال الزراعة، واستغلالهم امكانيات المغرب الزراعية، وحرصهم على زراعة أراضيه، وعدم تركها بورا، يذكر أنهم أقطعوا المهاجرين الأندلسيين أراض فسيحة في فحص مدينة مراكش، فقام هؤلاء بغراستها بمختلف أنواع الأشجار المثمرة كالزيتون، وحولوها الى بساتين في غاية الجمال، مع وفرة الإنتاج.[5]

حسب مارمول فإن عبد الله الغالب بالله الذي أقطعهم الأراضي المذكورة، قد خصص لكل واحد منهم أيضا مرتبا كالجنود، وأجرى لهم مجرى مائيا لري تلك الأراضي، وادارة أرحية عديدة أقيمت على ضفاف المجرى.[6]

كما أجرى عبد الله أيضا عدة مجاري في منطقة سوس لنفس الغرض وقام المنصور بعده بتوزيع الاراضي على من يفلحها وألزم بعض القبائل المترحلة على الاستقرار في البادية، والاشتغال بالزراعة فيها وأجرى لها ما يكفيها من الأراضي[7].

---

[1] - الافراني، نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، تح: عبد اللطيف الشاذلي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1998، ص 39.
[2] - مارمول ، المصدر السابق، ج2، ص31.
[3] - الفشتالي ، المصدر السابق، ص 210-231-227 Berthier , Op cit, pp
[4] - Berthier , Op cit, p106.
[5] - الفشتالي، المصدر السابق، ص42.
[6] - مارمول، المصدر الأسبق، ج2، ص61.
[7] - عبد الكريم كريم، المغرب في عهد الدولة السعدية، الرباط 1977، ص 254.

ونتيجة لوفرة الأمن والاستقرار خاصة في عهد عبد الله (1557-1574) وعهد أحمد المنصور (1578-1603) واهتمام السلاطين السعديين الأوائل بالزراعة، انتعشت الزراعة في المغرب، وكثرت الماشية، وازدهرت الحياة في الريف.

4-التراجع بعد الانتعاش:

ولكن هذا الانتعاش الذي شهدته الحياة الاقتصادية في المغرب في المجال الزراعي وتربية الحيوانات لم يدم طويلا بعد وفاة السلطان أحمد المنصور لاضطراب الأوضاع من جديد، نتيجة التنافس على السلطة، وكثرة الثورات الداخلية، واضطراب الأمن، وانعدامه في الطرق والحقول، مما أثر على النمو الزراعي الذي حققه المغرب على عهد السعديين. كما كان لسلسلة الأوبئة والمجاعات التي كادت تكون متصلة من القرن 11هـ/17م حتى نهاية العقد السادس منه انعكاسا على الوضع الاقتصادي والزراعي بشكل خاص.

خاتمة:

انطلاقا من جملة العوامل والظروف الدولية والإقليمية حاول السعديون خلق قطاعات اقتصادية جديدة يكون عليها اقبال كبير وتحقق عائدات مالية؛ فكانت صناعة السكر بمثابة "صناعة استراتيجية " وذلك عبر توسيع مجالات زراعة قصبها وبناء عدد من المصانع لاستخراج وتحضير أجود أنواع السكر الذي عرف العالم خلال القرن 16م. فما كان الا ان أصبحت البضاعة الأولى التي يسعى إليها التجار الأوروبيين؛ فحقق من خلالها المخزن السعدي عدة مكاسب في عديد المجالات الاقتصادية والسياسية والديبلوماسية...